تبادل الصيغ ودلالاتها في القرآن الكريم من خلال السِّياق.

د. البشير ميلود امحمد الجهمي
جامعة الزاوية- كلية التربية ناصر

تمهيد:

لا شكَّ أنَّ النَّاظرَ في معاجم اللُّغة ومصطلحاتها، يجد تعريفاً واضحاً وضوح الشَّمس في كبد السَّماء؛ لفهم معاني كلمة: (تغيّر، ودلالة، وسياق) على النَّحو الآتي:

التَّغيُّر لغة: تَغَيَّرَ الشيْءُ عن حاله: تَحَوَّلَ، وغَيَّرَهُ: جَعَلَه غَيْرَ ما كَانَ، وغَيَّرَهُ: حَوَّلَهُ وبَدَّلَهُ وفي التَّنزيل العزيز:﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، [سورة الأنفال: 53][1].

واصطلاحاً: انتقال الشَّيء من حالة إلى أُخرى، ويُقال التَّغيّر على وجهين:

أحدهما: تغيير صورة الشَّيء دون ذاته، يقال: غيَّر داره؛ إذا بناها غير الذي كان.

والآخر: تبديله بغيره، نحو: غيَّرتُ غُلامي، ودابتي أبدلتها بغيرهما[2].

أمَّا الدَّلالةُ لغة، فهي: كل شيء يقوم بدور العلامة، أو الرَّمز له دلالته أو معناه، سواء كانت العلامة أم الرمز كلمات وجمل، أو كانت أشياء غير لُغوية، كإشارات المرور، وإيماءة الرَّأس، ورسم فتاة مُغمضة تمسك ميزاناً، والتَّصفيق باليدين، وغيرها.

أوهي: الإرشاد، وما يقتضيه اللَّفظ عند إطلاقه، وتُجمع على: دلائل، ودلالات.

واصطلاحاً: علم مُستقل يُعد فرعاً من فروع اللُّغة، يهتم بدراسة دلالات الرَّموز اللُّغوية وأنظمتها، ويُسمَّى علم الدَّلالة، أو علم المعنى.

وقيل: هي كون الشَّيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشَّيء الأوّل: هو الدَّال، والثَّاني: هو المدلول[3].

وسياق الكلام: تتابعه، وأسلوبه الذي يجري عليه، وأصل السِّياق: سِوَاق، قُلِبَت الـ(واو ياءً)؛ لكَسرَةِ السِّين[4].

الهدف من البحث: هو تعريف -القارئ- بتبادل الصيغ ودلالاتها في القرآن الكريم من خلال سياق تبادل المواقع من المفرد إلى المثنى، والجمع، أو العكس؛ وذلك من خلال دراستها في المباحث التالية:

المبحث الأوَّل: إطلاق صيغة المفرد وإرادة الجمع.

تمهيد: لماذا يرى القارئ -في هذا المبحث- تغيّر دلالة الكلمة من خلال تبادل المواقع بين المفرد النكرة، والمعرّف بالألف واللام، والمضاف إلى المعرفة، وتداخل الضمائر، مع الجمع، بشكل يؤدي إلى انزاح واضح في دلالتها من معنى إلى آخر؟

وللإجابة عن ذلك تعالوا نُفصّل القول على النَّحو الآتي:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، [سورة غافر:67].

في هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أنْ يُقال: ما وجه الإفراد في قوله تعالى: (يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا)، مع أنَّ المعنى نخرجكم أطفالاً؟

للعلماء عن هذا السُّؤال أجوبة منها:

1- أنَّه صفة للجمع؛ لأنَّه مصدر، مثل: عدل، وزور، وغير ذلك.
2- أنَّ كل واحد منكم يخرج طفلاً.

ولا يخفى عدم اتجاه هذين الجوابين؛ لذلك قِيل: الذي يظهر من استقراء اللُّغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم، هو أنَّ المفرد إذا كان اسم جنس، يكثر إطلاقه مراداً به الجمع؛ ولكي تتجلي الصورة أكثر، نوضِّح ذلك في ثلاث مسائل:

1- التَّنكير. 2- التَّعريف: بالألف واللام. 3- الإضافة.

المسألة الأولى- دلالة المفرد النَّكرة على الجمع: من خلال النَّصوص القرآنية، والأبيات الشعرية، نسوق إليك-عزيزي القارئ- بعض الكلمات المفردة النكرة التي تظهر فيها دلالة المفرد النَّكرة على الجمع، بشكل واضح لا يخفى على أحد، وهي كما يلي:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾[سورة القمر:54]؛ أي: وأنهار، بدليل قوله تعالى:﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾، [من سورة محمد:47].
- وقوله عزَّ وجل: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾؛[من سورة الفرقان:74] أي: أئمة.
- وقوله تعالى:﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾؛ [سورة النساء: 4] أي: أنفساً.
- وقوله تعالى:﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ﴾، [سورة المؤمنون: 67] أي: سامرين.
- وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، [من سورة البقرة:136]أي: بينهم.
- وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾، [سورة النساء: 69]أي: رفقاء.
- وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾، [من سورة المائدة: 6] أي: جنبين أو أجناباً.
- وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾؛أي: مظاهرون.

ومن أمثلة ذلك مع التنكير في كلام العرب، قول عقيل بن علفة المري:[5].

كَانَ بَنُو فَزارةَ شَرَّ قومٍ * وكُنْتُ لَهُمْ كَشَرِّ بَنِي الأخِينا.**

يعني: شرَّ أعمام

وقول لَقَعْنَب بْن أُمّ صَاحِبٍ:[6]

مَا بالُ قَوْمٍ صَدِيقٍ ثمَّ لَيْسَ لَهُمْ * دِينٌ، وَلَيْسَ لَهُمْ عَقْلٌ إذا انْتُمِنوا؟[7]**

يعني: ما بال قوم أصدقاء.

وقول جرير:

نَصَبْنَ الهَوى ثُمَّ ارْتَمَيْنَ قُلوبَنا ... بأعْيُنِ أعْداءٍ، وهُنَّ صَدِيقُ.[8]

يعني: صديقات[9]

المسألة الثانية- دلالة المفرد المعرَّف بالألف واللام على الجمع:

1. قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾، [من سورة آل عمران: 119] يعني: وتؤمنون بالكُتُب كلها، بدليل قوله تعالى:﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ ﴾، [من سورة البقرة: 285].
2. وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾، [سورة الفرقان:75] أي: الغُرف؛ بدليل قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾، [سورة الزمر: 20] وقوله:﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾، [من سورة سبإ: 37].

3. وقوله تعالى:﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾، [سورة الفجر:27] يعني: جاء ربُّك والملائكة...؛ بدليل قوله:هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾، [سورة البقرة: 210].
4. وقوله تعالى:﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، [سورة القمر:45] أي: الأدبار؛ بدليل قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾، [سورة الأنفال: 15].
5. وقوله تعالى :﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾، [من سورة النور: 31] أي: الأطفال، ونحو هذا كثير في القرآن العظيم، وفي كلام العرب، وهو في النَّعت بالمصدر مطَّرد، كما تقدم مراراً.

ومن أمثلة ذلك في الشعر، قول زهير:

مَتَى يَشتَجِرْ قَوْمٌ تَقُلْ سرَواتُهُمْ * هُمُ بَيْنَنا فهُمْ رضًى وَهُمُ عدْلُ.**

بمعنى: عدول مرضيون.

المسألة الثالثة- دلالة المفرد المضاف على الجمع:

1. قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾، [من سورة النور: 61]أي: أصدقائكم.
2. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، [من سورة النور: 36]أي: أوامره.
3. وقوله عزَّ وجل: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، [سورة النحل: 18] أي: نعم الله.

4- وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾، [سورة الحجر: 68]أي: أضيافي، ونظير ذلك من كلام العرب، قول علقمة بن عبدة التميمي:

بها جيفُ الحسرى فأمَّا عِظامُها ** فبيضٌ وأمَّا جِلدُها فَصليبُ.[10]،[11]

أي: وأمَّا جلودها، فصليبة.

ومما جاء في الشّعر على لفظ المفرد المضاف، يُراد به الجميعُ:

كُلُوا في بَعْضِ بَطنِكُمُ تَعِفُّوا * فإنّ زمانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيصُ.[12]**

أي: بطونكم زمن خميص.

وهذا البيت والذي قبله أنشدهما سيبويه[13] في كتابه مستشهداً بهما قائلا:

"وليس بمستنكَرٍ في كلامهم، أنْ يكون اللَّفظُ واحداً، والمعنى جميعٌ، حتَّى قال بعضُهم في الشعر من ذلك ما لا يُستَعْمَلُ في الكلام".[14]،[15]

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره، فإن للمفرد دلالات أخرى ذكرها العلماء، نذكر منها قول أبي عبيدة:[16] "إنَّ العرب تضع لفظ الواحد في معنى الجميع، على سبيل المجاز".

وكذلك ما ذكرته بعض المعاجم من دلالات، تقول: إنَّه صالح لأن يُراد به جميع الجنس، وأنْ يُراد به بعضه إلى الواحد، وقد يُطلق المفرد ويُراد به ما يقابل المثنى، والمجموع، أعني: به الواحد، وقد يطلق ويُراد به ما يقابل المضاف، يُقال: هذا مفرد؛ أي: ليس بمضاف، وقد يُطلق على ما يُقابل المركب، وهو أنْ لا يدخل جزؤه على جزء معناه، بأنْ لم يكن للَّفظ أو للمعنى جزء كهمزة الاستفهام، وقد يُطلق على ما يقابل المركب والجملة.

أمَّا عن الفرق بين **المفرد، والواحد**، فإنَّ المفرد: قد يكون حقيقياً، وقد يكون اعتباريا، وأنَّه قد يقع على جميع الأجناس، بينما الواحد: لا يقع إلاَّ على الواحد الحقيقي.[17]

والخلاصة: بعد القراءة والاستقراء لأمثلة هذا المبحث، تبيَّن لنا-بوضوح- أنَّه لا خلاف بين أهل اللسان العربي في وقوع إطلاق المفرد وإرادة الجمع، وهو كثير في القرآن العظيم، وفي كلام العرب، غير أنَّني ألحظ في هذا المبحث أنَّ سبب تعدد دلالة المفرد، قد يرجع لكونه: اسم جنس، أو لتأثر الكلمة بضمير...، أو بالإضافة، أو عن طريق تبادل المواقع، وتداخل الضّمائر في سياق تركيب الجملة.

وقد يكون سبب هذا التَّحوّل دافعه: الضَّرورة الشَّعرية، أو المجاز، أو تأثر الكلمة بموقعها في الجملة...

لذلك نرى تغيّراً في دلالة الكلمة، فمنها: ما يُطلق ويُراد به الجمع، أو ما يُقابل المثنى والمجموع، ومنها ما يُشار به إلى دلالة الكلمة على معانٍ حقيقةٍ، أو مجازيةٍ...

المبحث الثاني- إطلاق صيغة الجمع وإرادة التَّثنية:

تمهيد: يدور الحديث في هذا المبحث حول توضيح دلالة المعنى الحقيقي، لصحة وقوع الجمع موقع التَّثنية في اللُّغة؛ وذلك من خلال فهم إجابة العلماء عن الأسئلة التالية:

ما دلالة الجمع في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾،[من سورة المائدة: 38]، ولِمَا لَمْ يقل: يديهما؟ وهل أقل الجمع اثنين؟

من سنن العرب إذا ذكرت اثنين أنْ تجريهما مجرى الجمع، كما تقول عند ذكر العُمَرَين، والحسنين-كرَّم الله وجوهما، ولم تقل: وجهَيْهُما، وكما قال عزّ ذكره:﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾؟ [من سورة التحريم: 4]؛ ولم يقلْ: قلباكما، فكذلك قال عزّ وجلّ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾؟ ولم يقل: يديهما؟

لأنَّ قوله: (أَيْدِيَهُمَا): جمع واقعٌ موقع التَّثنية؛ لأمْن اللَّبْس، لأنَّهُ معلوم أنَّه يُقطع من كلِّ سَارق يَمِينه[18] ولهذا فقد اشْتَرَط النَّحْوِيُّون في وُقُوع الجَمْع موقع التَّثنية شُرُوطاً، من جملتها:

أنْ يكون ذلك الجُزْء المُضَاف مُفْرَداً من صاحِبِه نحو: (قُلوبكما) و(رُؤوس الكَبْشَيْن) لأمْن الإلْبَاس، بخلافِ (العَيْنَيْن، واليَدين، والرِّجليْن) إذْ لو قلت:(فَقَأت أعينهما) وأنت تعني: عينيهما، و(كتَّفْت أيديهمَا)، وأنت تعني: يديهما، لم يَجُزْ لِلبْس، فلوْلاَ أنَّ الدَّلِيل دَلَّ على أنّ المُرَاد: اليَدَان اليُمْنَيَان لَمَا ساغَ ذلك، وهذا مُسْتَفِيض في لِسانِهم؛ أعني: وُقُوع الجَمْع مَوْقِع التَّثنِيَة بِشُرُوطه.

ولتوضيح ذلك نذكر المسألة بشكلٍ مفصَّل، فنقول: كُلُّ جزْأين أضيفا إلى كِلَيْهما لفظاً أو تقديراً، وكانا مُفْرَدَيْن من صَاحبيْهمَا جاز فيهما ثلاثة أوجُه:

الأحسن: الجمع، ويليه الإفْرَاد عند بَعْضِهم، ويليه التَّثنية، وقال بعضهم: الأحْسَنُ الجَمْع، ثم التَّثنِية، ثم الإفْرَاد، نحو: قَطَعْتُ رُءُوس الكَبْشَيْن، ورَأسي الكَبْشَيْن ورَأسَ الكَبْشَين.[19]

وأمَّا عن إجابة السؤال الثاني القائل: وهل أقل الجمع اثنين؟

فقد استدل الجميع بأنَّ أقلَّ الجمع:اثنان؛ لأنَّ التَّثنية جمع شيء إلى مثله، فالمعنى يقتضي أنَّها جمع؛ بدليل قوله -صلى الله عليه وسلَّم- : "اثْنَانِ فما فَوْقَهُمَا جَمَاعَةٌ"[20]

وممَّا استدل به على أنَّ أقل الجمع: اثنان، قوله تعالى:﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾، [من سورة النساء: 11] أي: إذا كان له أخوان، كان لأمِّه السدس.[21]

وحُكي عن سيبويه أنَّه قال: سألت الخليل[22] عن قوله: ما أحسن وجوههما؟ فقال: الاثنان جماعة، وقد قال الشَّاعر خطام المجاشعي، فَجَمَعَ بَيْنَ الْأَمْرَيْن:

ومَهْمَهَيْنِ قَذَفَيْنِ مَرْتَيْنِ*** (ظَهْرَاهُما مِثْلُ ظُهور التُّرْسَيْن).[23]

وعلى هذا جاءت التَّثنية بلفظ الجمع، وليس ذلك إلاَّ نظراً للجمع على الحقيقة، إذْ كان ذلك جمع واحد إلى واحد، فعلى هذا ساغ أنْ تكون التَّثنية جمعاً.

الخلاصة: لو تأمل القارئ كيف جمع النَّص القرآني كلمة: اليد، فقال: (أيدي)، ثُمَّ أدخل التَّثنية على الجمع (هما)، فصارت: (أيديهما)؛ لفهم أنَّ الجمع: جاء باعتبار أفراد نوع السَّارق، والتَّثنية؛ لتشمل الذكر والأنثى.

المبحث الثالث: دلالة صيغة الجمع على المفرد.

تمهيد: الناظر في هذا المبحث يلاحظ أنَّ لفظ المفرد أتى بصيغة الجمع، غير أنَّ دلالته جاءت على معنى: المفرد؛ ولتوضيح ذلك تعالوا نُفَتِّش عن دلالة لفظ الجمع على المفرد، في النَّصوص الآتية:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، [سورة آل عمران: 137] أي: أنَّ النَّاس جمع، وكان الذي قال: رجلاً واحداً، فلفظ النَّاس لفظه لفظ: الجميع الذي له واحد منه، ووقع معنى هذا الجميع على الواحد؛ لأنَّ الذي قال: رجلا واحداً، وليس جميع النَّاس؛ فهو من باب: إطلاق الجمع وإرادة المفرد.[24] ومما يقوى أنَّ المُراد بالنَّاس في قوله:﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾، واحد:

قوله عزَّ وجل:﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾؛ فوقعت الإشارة بقوله: (ذلكم) إلى واحد بعينه، ولو كان المعنى به:جمعاً؛ لقال: (إنَّما أولئكم الشيطان)، فهذه دلالة ظاهرة في اللَّفظ، وقيل: بل وضع فيه (الذين) موضع (الذي).[25]

وكقوله تعالى:﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾، [من سورة آل عمران: 39]فالمُنَادى: سيدنا جِبْرِيل- عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام- وَحده، وليس جميع الملائكة.[26]

وهذا لا يمتنع في اللُّغة كما تقول: ركب فُلان السّفن؛ وإنَّما ركب سفينة واحدة، أي: ركب هذا الجنس؛ لأنَّ العرب تفعل ذلك، فيقول الرجل: فعلنا كذا، وفعلنا...، وإنَّما يعنى: نفسه؛ وجاء القرآن ليؤكد ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، [سورة القمر: 49]؛ والله هو الخالق.[27]

وخلاصة القول: إنّ دلالة لفظ (الجمع) في(النَّاس، والملائكة، والشَّياطين، وخلقناه...) جاءت بمعنى: المفرد، المستعمل لقصد الإبهام؛ أو لأنَّه لا يمكن أنْ يُحمل على معناه الحرفي؛ إذْ حال المخاطبين لا تحتمل أنْ يُجمع لهم كلَّ النَّاس، والملائكة...،على سبيل الحقيقة، إنَّما بعضهم؛ والدَّليل على ذلك: القرينة العقلية.

المبحث الرابع- إطلاق صيغة المثنى على الجمع:

تمهيد: يتمحور الحديث في هذا البحث، حول إطلاق لفظ (التَّثنية) المراد به: الجمع، يظهر ذلك جلياً من خلال تتبع دلالة الكلمات الواردة في النَّصوص القرآنية الآتية:

جاء لفظ (كرتين) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾، [سورة الملك: 67]- بصيغة المثنى، وهو يدل على الجمع بدليل قوله تعالى:﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾؛ أي: مزدجراً وهو كليل، وهذان الوصفان لا يأتيان بنظرتين، ولا ثلاث؛ وإنَّما المعنى: كرَّات، وهذا كقولهم:" لَبَّيْكَ، وسعْدَيْكَ، وحنَانَيْكَ، ودَوَالَيْك،وهَذَاذَيْكَ"[28] فهم لا يريدون بهذه التَّثنية تشفيع الواحد؛وإنَّما يريدون التَّكثير؛ أي: إجابة لك بعد أخرى.

والتَّثنية تُفيد: التَّكثير؛ لقرينة كما يُفيده أصلها وهو العطف؛ لقرينة ؛ كقول الشاعر:

لَوْ عُدَّ قَبْرٌ وَقَبْرٌ كَانَ أَكْرَمَهُمْ * بَيْتًا وَأَبْعَدَهُمْ عَنْ مَنْزِلِ الزَّمِّ.**[29]

أي : قبور كثيرة ليتم المدح.[30]

ومما يؤكد أنَّ حقيقة النَّظر أربع مرات:

الأولى- في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾، [من سورة الملك: 3].

والثانية- في قوله تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾، [من سورة الملك: 3].

والثالثة، والرابعة - في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾، [من سورة الملك: 67].

والخلاصة: أنَّ النَّاظر في نصوص القرآن الكريم وما نطق به العرب، يستنتج أنَّ المُراد بالتَّثنية هو: الجمع؛ لأنَّ البصر لا يحسر إلاَّ بالجمع: كرَّات؛ فلو أمره أنْ ينظر في السَّماء كرَّتين فقط، فنظر مرتين، لم يرجع البصر خاسئاً وهو حَسير؛ لأنَّ البصر لا يُحْسر من مرتين، إنَّما يُحْسر من مرات.

المبحث الخامس- إطْلاق صيغة المُفْرد على المثنى:

تمهيد: من المعروف أنَّه يجب مطابقة المعطوف للمعطوف عليه، ولا يراع فيه حالة المعطوف وحده؛ نحو: جاء السائل والغريب، فعاونتهما، وفازت فاطمة وسعاد وعائشة، فهنأتهن... وهكذا؛ غير أنني ألحظ ألفاظاً- في نصوص القرآن الكريم، والحديث الشريف، وكلام العرب تأتي على صيغة المفرد، ويُراد بها المثنَّى، نحو: قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾،[سورة التوبة: 62].

ما دلالة كلمة (يُرْضُوهُ) في قوله تعالى:﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ في سورة التوبة؟

إنَّما أفرد الضمير، وإن كان الأصلُ في العطف بـ(الواو) المطابقة، لوجوهٍ منها:

1. أنَّ رضا الله ورسوله شيءٌ واحد؛ بدليل قوله تعالى: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾، [سورة النساء: 80].
2. أنَّ الضمير عائدٌ على المثنَّى بلفظِ الواحد بتأويل المذكور؛ كقول رؤبة:[31]

فِيهَا خُطُوطٌ مِن سَوَادٍ وَبَلَقْ[32]* كأنَّه فى الجلْد تَوْلِيعُ البَهَقْ.**[33]

أي : كأن ذلك المذكور.

قيل له كيف تقول: كأنَّه؟ وهلَّا قلت: كأنَّها، فيعود على (الخطوط) أو كأنَّهما، فيعود على (السَّواد والبلق)؟ فقال أردت: كان ذاك، ثُمَّ استشهد بقول لبيد:[34]

إن لِلْخَيْرِ وللشَّرِّ مَدىً * وَكِلَا ذلك وَجْهٌ وَقَبَلْ.**

قيل أراد: وكلا ذينك، فأطلق المفرد وأراد به: المثنَّى.

فكلمة: (ذا) تدل في حقيقتها اللُّغوية على المفرد المذكَّر، ولكنَّها تدل بمعناها هنا على (المثنَّى)؛ لأنَّها إشارة إلى ما ذُكر من (الخير والشر)، وهذه الدلالة مجازية؛ لأنَّه على غير المفرد[35]

وإنَّما أُفرد الضمير؛ لئلا يجمع بين اسم الله ورسوله في ضمير واحد، كما جاء في الحديث: "بِئْسَ الْخَطِيبُ أنت، قُلْ: وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ"[36] قال الزَّمخشري:[37] قد يقصدون ذكر الشَّيء، فيذكرون قبله ما هو سبب منه، ثم يعطفونه عليه مضافاً إلى ضميره، وليس لهم قصد إلى الأول، كقولهم: سرَّني زيد، وحسن حاله، والمراد: حسن ماله، وفائدة هذا الدَّلالة: أنَّها تدل على قوّة الاختصاص، بذكر المعنى:(ورسول الله أحق أنْ يرضوه) ويدل عليه ما تقدَّم من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، [من سورة التوبة: 82] ؛ ولهذا وحَّد الضمير، ولم يُثَنِّ.[38]

وممَّا ورد في كلام العرب قولهم: رأيت عمراً وزيداً، وسلمتُ عليه؛ أي: عليهما؛ ولهذا نرى في نصوص القرآن كثيراً من الألفاظ التي جاءت على السِّياق نفسه، نحو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، [من سورة التوبة: 34].

وتقدير الكلام: ولا ينفقونهما في سبيل الله، وقوله تعالى:﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾، [سورة الجمعة: 11]؛ وتقديره: انفضوا إليهما.[39]

والخلاصة: لقد ظهر لي من خلال دراسة النُّصُوص السابقة؛ أنَّ العرب إذا ذكرت شيئين يشتركان في المعنى، تكتفي بإعادة الضَّمير على أحدهما؛ استغناءً بذكره عن ذِكر الآخر؛ لمعرفة السَّامع باشتراكهما في المعنى.

المبحث السادس- إطلاق صيغة المثنَّى على المفرد:

تمهيد: أحاول التَّعرَّف -في هذا المبحث- على فهم العِلَّة أو الدَّافع من وراء أمر الواحد بلفظ أمر الاثنين؛ وذلك من خلال الإجابة عن السؤال التالي:

لماذا أُتي بضمير المثنَّى والمراد به الإفراد؟ وهل المأمور واحد، أو اثنان في قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [سورة ق: 24].

اختلف أهل العلم في ذلك إلى فريقين:

فريق قال: المأمور واحد؛ وهو خطاب لمالك خازن النَّار، والمعنى: ألقِ في جهنم...؛ وإنَّما أُتي بضمير الاثنين دلالةً على تكرار الفعل؛ كأنَّه قيل: ألْقِ ألْقِ.

وآخر قال: أراد(ألْقَيَنْ) بالنون الخفيفة، فأبدلها ألفاً إجراءً للوصل مجْرَى الوقف ... وقيل: العرب تُخاطب الواحد مخاطبة الاثنين تأكيداً؛ كقوله:

فَإنْ تَزْجُرَانِي يَا ابْنَ عَفَّانَ أزْدَجِرْ* وَإنْ تَدَعَانِي أحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعَا.**[40]

وقال آخر:

فَقُلْتُ لِصَاحِبِي: لاَ تَحبسانا* بِنَزْعِ أصُولِهِ واجْذَزَّ شِيحَا.**[41]

وتقول العرب: ويحك ارْحِلاهَا، وازْجُرَاهَا، وخُذاها، للواحد.

قال الفرَّاء[42]: وأصل ذلك أنَّ أدنى أعوان الرجل في إبله، وغنمه، وسفره،: اثنان، فجرى كلام الواحد على صاحبه، ومنه قولهم في الشعر: خليليَّ...[43]

والخلاصة: أنَّ الألف من (ألقيا، وتزجراني، تدعاني...، ضمير: اثنين، وضع موضع ضمير الواحد؛ وإنَّما فعلت العرب ذلك؛ لأنَّ الرجل يكون أدنى أعوانه اثنين : راعي إبله، وراعي غنمه، فجرى خطاب الاثنين على الواحد؛ لمرور ألسنتهم عليه.

وقيل: إنَّ الألف فيهما بدل من النون الخفيفة في الوصل، أُجْرِي له مجرى الوقف، والأصل: قولن، وإنْ تزجرَّن، وإنْ تدعن.

أمَّا إلحاق الألف، فهو أمارة دالّة على أنَّ المراد: تكرار اللَّفظ لا غير.

الخاتمة: بعد هذه الدّراسة التي سعيت من خلالها إلى توضيح **مشكلة** البحث المتمثّلة في كيفية معرفة أسباب تغيُّر دَلالةِ الكلمةِ في سيَّاق تبادل المواقع، وتداخل الضمائر؛ وذلك من خلال الشَّرح والتَّوضيح لكل سبب في متن هذا البحث على حده، عن طريق وضع مبحث خاص به، يختلف عنوانه عن الآخر، ثُم الوصول إلى **نتيجة** مفادها: أنَّ سبب تغيّرُ دلالة الكلمة من معنى إلى آخر، دافعة تبادل المواقع، وتداخل الضمائر، من المفرد إلى المثنَّى والجمع، أو العكس.

عليه: أوصي طلاب العلم بقراءة، واستقراء مباحث هذا البحث، قراءة متأنية، واعية؛ حتى يمكن استيعاب وفهم الأسباب التي أدَّت إلى تغيُّر دلالة الكلمة في تركيب الجملة العربية؛ لكي تذهب الحيرة من الأذهان، ويُعرف السبب، فيزول العجبُ.

كما أنصح بمواصلة مزيدٍ من الدراسة، والبحث في هذا السّياق؛ بقصد التّقصّي، والتَّوسع في إثراء المكتبة العربية، عن طريق توضيح الأسباب، والدوافع الكامنة وراء تغير دلالة الكلمة عند انتقالها من مكان إلى آخر في كلام العرب.

الهوامش

1. محمد مرتضى الحسيني الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مجموعة من المحققين، لاط، لاب، لات، مادة: (غ ي ر).

2. محمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تح: د. محمد رضوان الداية، ط1، دار الفكر المعاصر، – بيروت-دمشق، 1410، 191/1 .
3. أحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تح: المكتبة العلمية، لاط، بيروت، سنة الوفاة 770هـ، لات،(د ل ل).
4. علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت،1405، ط1، تح: إبراهيم الأبياري، 139/1.
5. علقة بن عقيل بن علقة المري، وهو من وجوه بني مرة بن ذبيان...، أبو القاسم علي بن عبد الله الشافعي، تاريخ مدينة دمشق، وذكر فضلها، وتسمية من حلها من الأماثل، تح: محب الدين أبي سعيد عمر العمري، لا ط، دار الفكر - بيروت - 1995، 128/41.
6. قعنب بن ضمرة، بن غطفان: من شعراء العصر الأموي، كان في أيام الوليد بن عبد الملك، وله هجاء فيه، توفي عام:714م. خير الدين بن محمود، الزركلي، الأعلام، توفي،1396هـ، دار العلم للملايين، ط15 – أيار/مايو 2002 م، لا ب، 202/5.
7. البيت من البسيط، وقائله: قعنب بن ضمرة، من بني بن غطفان: من شعراء العصر الأموي. المعجم المفصل في شواهد العربية، د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، ط 1، 1417هـ - 1996م، لا ب، 8/ 118.
8. البيت من: الطويل، وقائله: جرير. طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تح: محمود محمد شاكر، لا ط، دار المدني - جدة، لا ت، 411/2.
9. محمد الأمين بن محمد الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تح: مكتب البحوث والدراسات، لا ط، دار الفكر للطباعة والنشر- بيروت - 1415هـ -1995م، 271/4.
10. الصَّلِيب: الودك، محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، لاط، لاب، لات، مادة: (و. د. ك).
11. من الطويل، وقائله: علقمة بن عبدة التميمي. عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب، توفي: 1093هـ، تح: محمد نبيل طريف، وإميل بديع اليعقوب، لاط، دار الكتاب، 1998، بيروت،209/1.
12. البيت :من الوافر. البغدادي، خزانة الأدب، 5225/7
13. هو: عمرو بن عثمان المعروف بـ(سيبويه)، من أهل البصرة، صحب الخليل بن أحمد، فبرع في النحو،وجرت بينه وبين الكسائي وأصحابه مناظرة...، وذكر بعض أهل العلم انه مات في سنة ثمانين ومائة، وقيل: مات سيبويه سنة أربع وتسعين ومائة. أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، لا ط، دار الكتب العلمية – بيروت، 195/12-198.
14. سيبويه، الكتاب، 1/ 209، 210.
15. الشنقيطي، أضواء البيان، 33/2، 20/1، الزمخشري، الكشاف، 262/3، و ابن عطية، الوجيز، 413/4.
16. أبو عبيدة معمر بن المثنى، القرن، مجاز القرآن، تح : محمد فواد سزگين، لا ط، مكتبة الخانجي، القاهرة، لا ت، 9/1، 44/2.
17. أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تح: عدنان درويش، محمد المصري، لاط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1419هـ - 1998م، 829/1.
18. عبد الملك بن محمد الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، تح: عبد الرزاق المهدي، ط1، إحياء التراث العربي، 1422هـ -2002م،226/1.

19. أبو حفص عمر ابن عادل الدمشقي، اللباب في علوم الكتاب، تح : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ، علي محمد معوض، ط 1، دار الكتب العلمية – بيروت- لبنان - 1419 هـ -1998م، 322/7.

20. نص الحديث: حدثنا هِشَامُ بن عَمَّارٍ ثنا الرَّبِيعُ بن بَدْرٍ، عن أبيه عن جَدِّهِ: عَمْرِو بن جَرَادٍ عن أبي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّن قال قال رسول اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- : "اثْنَانِ فما فَوْقَهُمَا جَمَاعَةٌ". محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، سنن ابن ماجه، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، لا ط، دار الفكر – بيروت، لا ت، 312/1.

21. أضواء البيان، الشنقيطي، 220/8.

22. الخليل بن أحمد الفراهيدي، له المصنفات المشهورة منها كتاب: العين، وهو أول من اخترع العروض والقوافي...، مات: سنة سبعين ومئة، أو خمس وسبعين. أبو العباس شمس الدين أحمد أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، لا:ط، دار الثقافة، لبنان، لات، 244/2.

23. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 73/5، وابن عادل، اللباب في علوم القرآن، 391/3-322/7.

24. أبو عبيدة، مجاز القرآن، 10/1.

25. الزركشي، البرهان، 20/2.

26. أبو البقاء، الكليات، 1078/1.

27. أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد، معاني القرآن، (المتوفى: 338هـ)، تح : محمد علي الصابوني، ط:1، جامعة أم القرى - مكة المرمة، 1409، 390/1.

28. بمعنى: هَذًّا بَعْدَ هَذٍّ، أي: قَطْعاً بعد قَطْعٍ، ومنه قول الشاعر:

قُبَاكَرَ مَخْتُوماً عَلَيْهِ سِيَاعُه * هذاذيْكَ حَتَّى أَنْقَدَ الدَّنَّ أَجْمَعَا.**

وَتَقُولُ لِلنَّاسِ إذا أردت أن يكفُّوا عَنِ الشَّيْءِ: هذاذيكَ وهَجاجَيْكَ، عَلَى تَقْدِيرِ الْأَثْنَيْنِ.الزبيدي، تاج العروس، وابن منظور، لسان العرب، مادة: (هـ ذ ذ).

29. البحر من: البسيط، وقائله: لم نعثر عليه، أبو حيان: محمد بن يوسف، البحر المحيط، تح: عادل أحمد الشيخ وآخرون، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، 1422ه-2001م، 293/8.

30. ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، 19/ 230، و الزركشي، البرهان، 8/3.

31. البيت من: الرجز، وقائله: هو أبو محمد رؤبة بن العجاج، المتوفي: سنة 145 ه 762 م، وهو أشهر الرجازة، لم يطبع ديوانه. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، تح: محمد عوامة، ط/1، دار الرشيد - سوريا - 1406 - 1986، 111/1.

32. هو: سواد وبياض، وكذا البلقة بالضم، يُقال: فرس أبلق، وفرس بلقاء، البُلق والبُلْقَة: مصدر. الرازي، مختار الصحاح، مادة: (ب.ل.ق).

33. هو: بياضٌ دونَ البَرَص؛ أي: بَيَاضٌ يَعْتَرِي الْجَسَدَ بِخِلَافِ لَوْنِهِ لَيْسَ مِنَ البَرَص، أو هو: دَاء يذهب بلون الْجلد فتظهر فِيهِ بقع بيض. ابن منظور، لسان العرب، مادة: (ب ه ق).

34. البيت من: الرمل، وقائله: ليس(لبيد) كما ورد في البحر المحيط، وإنَّما قائله هو: عبد الله بن الزبعرى، أحد شعراء قريش، وكان يهجو المسلمين ثم أسلم. عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911 هـ)، شرح شواهد المغني، تح: أحمد ظافر كوجان، لاط، لجنة التراث العربي، 1386 هـ - 1966 م، لاب، 549/2.

35. أبوحيان، البحر المحيط، 1/ 604، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، 113/10.